ISSN: 2352-9770 / EISSN: 2602-5337 مجلد 5 ع3 (عدد 13 ) / جوان 2020 –شوال 1441 السنة السادسة

# النص التاريخي في مادة المذكرات الشخصية: قراءة في مستويات التجرّد من الأنا ونشد الحقيقة التاريخية "مذكرات محمد قنانش أنموذجا"

# the historical text of the article on personal memorials: a reading of the levels of egoism/ selfishness and an exhortation of the historical truth, the mohammed qananesh model" "."

البشير بوقاعدة
جامعة محمد لمين دباغين سطيف2.
bougaadabachir@yahoo.com

تاريخ الاستلام : 2019-10-04 تاريخ القبول : 2019-11-11

**الملخص:**

تضطلع هذه الورقة البحثية بالكشف عن أهمية الكتابة التاريخية التي تنطق بها المذكرات الشخصية، باعتبار الأخيرة أحد المحركات الفاعلة في مسار العملية الانتاجية البحثية، وموردا لا ينضب يضخّ حقلها بالنص الخبري المستجد، المُسعف للجروح التي تتخلّل النص المكتوب، والفجوات التي تشوب نسيج حوادثه. كما تهتم من زاوية أخرى، بتسليط الضوء على اشكالية مستويات تجرّد كُتّاب المذكرات وأصحابها من عقدة الأنا، وتطليق النزعة الذاتية، وعصيان سلطان العاطفة إذا ما افترشت حقلا غير حقلها الطبيعي أو تجاوزت حدودها المشروعة، ومدى مناشدة كتابها سبيل الموضوعية والاستنجاد بسلطانها، واقتفاء أثر الحقيقة التاريخية والتقيّد بالنهج القائد إلى ميدانها، وكان الأنموذج التي آثرنا أن تكون مادتها عيّنة للدراسة هي مذكرات "محمد قنانش". ذلك أنّ المادة التاريخية التي ينتجها المصنِّف في ثوب مذكرات شخصية إذا ما تقيّد الأخير بالضوابط الناظمة لسبيل كتابة موضوعية صادقة، وتجاوز عن كل ما من شأنه أن يعكّر صفو الحقيقة التاريخية التي يبني عرشها، فإنّ منتوجه التصنيفي سيكون اضافة نوعية في حقل الكتابة التاريخية والنص المصدري.

**الكلمات المفتاحية**: المذكرات، الشخصية، النزعة الذاتية، الحقيقة التاريخية، الأمانة.

**Astrac:**

this paper explores the importance of the historical writing of personal notes, as the latter is one of the active engines in the research production process, and as an inexhaustible resource pumping its field with updated news text, a mediator for wounds in the written text, and gaps in the fabric of its episodes. From another point of view, it is also concerned to highlight the problem of levels that strip the writers and their companions of ego, free subjectivity, disobedience to the power of emotion if they spread a field other than their natural field or exceed their legitimate boundaries, the extent to which their authors plead for objectivity and condescending to their authority, the tracing of historical truth and adherence to the leading approach to their field. If the classifier adheres to the rules governing an objective and genuine writing process and oversteps anything that might disturb the historical truth that he is building his throne, the classifier's approach will be a qualitative addition to the historical writing and the source text.

Key words: notes, personality, subjectivity, historical truth, honesty.

**I المقدمة:**

تشكّل المذكرات الشخصية دونما موارية: حقلا معرفيا غزيرا ما فتئ يمدّ بحر الكتابة التاريخية بمادة داعمة، وأفكار وآراء ووجهات نظر جديدة تعضدها، وحقائق تاريخية مستجدّة تكشف المغمور والمسكوت عنه، وتُجلّيه إلى سطح الحقيقة. كما شكّلت المادة التي تنطوي عليها تلك المذكرات مُحرِّكا هاما في مسار

العملية البحثية والدراسة التاريخية، نظير الإضافة النوعية التي تقذفها في حقلها وتبعث الروح في عديد القضايا التاريخية التي ترسّخ في المخيال الجمعي للنخبة الباحثة أنّ أمر حقيقتها قد حُسِم؛ ذلك أنّ جهر البعض من أصحاب تلك المذكرات بالحقائق التي هم على دراية بأنّ حوادثها لا تزال صامتة وأنّ نور الحقيقة لم يسطع بعد فوق سمائها، وتحلّيهم بالشجاعة للإدلاء بالشهادة التاريخية حتى وإن كانت حقيقتها قاسية، والتجرّد من العاطفة ونشد الحقيقة لا غير، سيستفزّ أقلام الباحثين لاستثمار تلك الحقيقة خدمة للتاريخ والتأريخ، وينير دربهم البحثي بنصوص تسدّ الخلل الذي كان يعتري الحدث التاريخي، ويهديهم إلى السند التاريخي المعين على التقويم والتصحيح.

تأسيسا على هذا الطرح، فقد توجّه اهتمامنا صوب معالجة اشكالية علمية تتعلّق ببحث مكانة النص التاريخي في مادة المذكرات الشخصية وبالأخصّ المتعلقة بتاريخ الجزائر، من خلال نسج مقاربات بحثية تضطلع بتحديد مستويات تجرّد كُتّاب المذكرات وأصحابها من عقدة الأنا ونهج سبيل بيان الحقيقة التاريخية؛ ذلك أنّ أهمية المذكرات وقيمتها التاريخية ووزنها العلمي والتراثي، يظلّ خفيفا إذا لم يتجرّد الناسجون لمحتواها والكاتبون لمادتها من ذاتيتهم، وخدمة توجهات معينة على حساب الحقيقة والحدث؛ لأنّ ظلم مادة النص التاريخي، وتأويل الحدث على غير حقيقته، وليّ عنقه: يعدّ جريمة عظيمة في حق التاريخ والكتابة التاريخية.

وحتى تتوسّع نوافذ الايضاح بشكل أكثر لعمق الاشكالية، وتنجلي الرؤى بشأن المقاربات التي ستنسج لبناء عرش هذه الورقة البحثية، رأينا أن نضمّ إلى صفّ الاشكالية الرئيسة هذه التساؤلات: إلى أي حدّ تراعي أبجديات النقد التاريخي من طرف كتّاب المذكرات الشخصية في كتابة مذكراتهم وعرض مادتها؟ ما مدى انسجام الخطاب التشريحي-السردي للمادة التاريخية المعروضة في المذكرات الشخصية مع أفق الحقيقة التاريخية التي هي في أصول البحث: ضالة كل باحث ومهتم بالكتابة التاريخية؟ هل راهن كاتب المذكرات الشخصية على تمثّل الخطاب النقدي في زمنه لكشف الحقائق التاريخية الدفينة أو القابعة في مساحات الظل، التي تنتظر شمس الحقيقة والجلاء، أم ظلّ الخطاب والإنتاج بعيدا عن المنشود والمبتغى؟ فيما تتجلى مستويات الجهد النقدي في فكر الكتاب والمؤلفين للمذكرات وتصوراتهم؟ وما مدى حجم التمايز والتباين ومستويات التفاعل مع أسلوب النقد على المستويين النظري والتطبيقي؟ هل ارتقت المادة التاريخية التي تنطوي عليها كتابات المذكرات الشخصية إلى مصاف أحد مصادر النقد التاريخي البناء والهادف، ومثالا حيا عن تمثّل الموضوعية في فن الكتابة وتطليق النزعة الذاتية في نسج مادتها وعرضها؟

وقبل أن نشقّ طريقنا في هذا المضمار البحثي، نشير بأنّه في ورقتنا البحثية هذه، ستتركّز جهودنا في بحرها على طرق في الشق الأول منها: ما تعلّق بقيمة النص التاريخي الكامن في جسم المذكرات الشخصية، وأهمّ السمات البارزة على بنائه ومحتواه، وطبيعة نسيجه، وقدرته على استيعاب الحوادث التاريخية والوقائع. أمّا الشق الثاني: فيضطلع ببيان قدرة أصحاب المذكرات الشخصية على خلق الإضافة في مجال الكتابة على ضوء مادتهم المعروضة في بطون مذكراتهم، وذلك من حيث: حدود احترامهم لمسافة الأمان التي تقتضيها منهجية الكتابة التاريخية، ونهجهم الدروب التي تقود إلى برّ أمان الحقيقة التاريخية على كاهل النقد التاريخي البناء؛ الذي يُطلِّق النزعة الذاتية وروح الأنا طلاقا بائنا بينونة كبرى لا رجعة فيه، وينبذ كل سبيل يقود إلى عدم تحرّي الحقيقة، بالإضافة إلى مستويات قدرتهم على تغطية العجز الخبري الذي يتخلل بعض المواطن في جسم الحوادث التي أرّخ لها من سبقهم.

كما أشير بداية بأنّ النماذج النصية التي سنخضعها للدراسة والاستدلال على ضوئها ستنحصر في مادة مذكرات محمد قنانش[1]. نتقوى بمادتها على التدليل لمراميا البحثية، ونسقي بها أرض مادتها، مع أنّ ذلك لا يعني أننا أخضعناها للنقد التاريخي بشكل رئيس بقدر ما نسعى على ضوء مادتهما وما أورده أهل التصنيف في مناهج البحث التاريخي، للكشف عن مقومات الكتابة التاريخية الهادفة؛ التي تروم الحقيقة التاريخية لا غير.

## II - النص في المذكرات الشخصية بين طاقة الاستيعاب ومستويات الحمولة:

في الغالب، يرسم لنا النص التاريخي الذي تنطق به المذكرات الشخصية، صورة عن الواقعة بتمثلاتها، ودقائق حيثياتها، كما تسهم مادته في ربط السياقات التاريخية للحدث بجسور تاريخية إلى مواطن من شأنها أن تفصح عن طبيعة الحوادث ذات العلاقة الوطيدة بالحدث؛ تلك التي يقوى معناه ببيانها وتنجلي خباياه على ضوئها، ويشتدّ صداه ويسطع بمادتها. ذلك أنّ الراوي لحيثيات الحدث التاريخي كثيرا ما يعمد حين ينسج تفاصيل الحدث النابع من كونه مصدرا عيانا وشاهد حيا أو منتجا في للمادة الخبرية، إلى تغذية حيثياتها بكل ما تجود به ذاكرته من قرائن ذات الصلة بالحوادث والأخبار الثانوية لبيان دقيق وموسّع أو مستفيض، وذلك لإظهار المغزى العام والمرمى الواسع. لذلك فمن دون شكّ، تعدّ هذه المادة المُنتَجة على النسق الذي بسطنا: منتوجا معرفيا ومادة خبرية في غاية

الأهمية، كيف لا، وهي تكشف عن حقائق تاريخية حتى وإن كانت اضافية أو ثانوية، إلاّ أنّه لا يمكن سلخها عن جسم الحدث الرئيس أو النص الأساس، ذلك أنّ مادتها كذلك: تعدّ بمثابة مصابيح إضاءة تنير مساحة الحواشي، كما ينعكس ضوءها حتى على عمق الحدث، فتتسع مساماته الايضاحية، ويتنفس ما في أحشائه من حقائق خبرية، كانت تعاني الغربة في أعماقه، والظلمة بين جدرانه.

وممّا يرفع من مصداقية مسعانا هذا، ما بسطه المنظرون لمناهج البحث العلمي والكتابة التاريخية، ومن بين ما ذُكِر: أنّ الحوادث والأوصاف التي يسجّلها الشاهد العيان والمعاصر للحدث أو الصانع لوقائعه المساهم فيها شأن مؤلف المذكرات الشخصية أو الرحالة على سبيل المثال، تمتاز مادته في غالب الأحيان بإعطاء دقائق وتفاصيل، "وبتصويرها لنواح من روح العصر، وهو ما لا يتاح بسهولة للكاتب المتأخر[2]"؛ الذي يبني نظرياته وطروحاته وتخريجاته وتأصيلاته ومقارباته على كاهل ما بين يديه من مادة، وسبيل الاستقراء والتحليل والاستنباط. وهو سبيل حتى وإن كان المخرج المنهجي لتفعيل الكتابة التاريخية والكشف عن الحقائق، يظلّ في أمسّ الحاجة إلى عينات من الحوادث الصادقة السليمة التي تنقلها إليه أيادي أمينة، وعقول وذاكرة مستوعبة للحدث محيطة بحيثياته وتفاصيله وخفاياه.

إنّنا لو رجعنا إلى بعض النصوص المصدرية التي ساقها "محمد قنانش"[3] عن ذكرياته مع مشاهير الكفاح، نجده وهو يعرض أخبارا عن بدايات اتصاله بمصالي الحاج، والوقائع التاريخية الراسمة لنقاط ومفاصل التعارف الجامعة بينهما، يغوص في مسار السرد إلى درجة استعراض الشجرة العائلية التي تنطق بنسب مصالي الحاج، وتعرض امتداد عرقه، بل وهو يتناول الاطار الزمكاني المحدد لتاريخ ميلاده وجغرافيته، لا يكتفي بذكر مكان الولادة كما هو معهود في التصنيف المصدري أو عند أصحاب المراجع الذين أرخوا لحياة الشخصية، وإنما يستطرد في سرد أغلب ما استجمعه من منظومة التسميات التي عُرفت بها المنطقة التي يؤرخ لها؛ تلك التي وُلِد بها "مصالي الحاج"[4]، وذلك من قبيل ما عرضه من أسماء اُشتهرت بها المنطقة، أو التي تختص بها عند أهلها وتعرف عندهم، وتُتداول بتسميات محصورة الاستخدام في حيّزهم الجغرافي[5].

ولو تمادينا في تتبع ما أورده "قنانش" عن المحطات الأولى التي رسمت نقاط التمفصل لجسم العلاقة الجامعة بين عائلة "مصالي" وعائلة "قنانش" صاحب المذكرات، فإنه لا يتوانى عن استعراض دقائق التفاصيل المُحدِّدة أو الناطقة بمظاهر ذلك؛ إذ نجده يشير حتى إلى مستويات الامتداد العلائقي الذي تأسس بين العائلتين بحكم الجغرافيا المُحتضنة لكيانهما؛ وذلك في حومة باب الجياد التي كانت مقر سكن العائلتين[6]. وبالأخصّ نسيج القرابة العائلية الذي انبنى على كاهل قرابة الإقامة الجغرافية والنَسبية؛ فقد كان "مصالي الحاج" ينزل في فترات عند أخته الكبرى ويقيم في بيتها، وبذلك فهي تعدّ محطة من محطات التعارف والتلاقي الجامع بين العائلتين، تُضاف إلى نظيراتها من المحطات التي ساقها المصنِّف. بل لم يكتف بذلك، وإنما راح يستعرض ما يربط عائلته بوالد مصالي وأسرته؛ فيذكر أنّ الأخير كان يسكن بالمنطقة التي يوجد بها ضريح الشيخ "عبد القادر الجيلاني، وأسند إلى صفّ ما ذكره: أنّه والد مصالي، وبالإضافة إلى كونه كان قيما على الضريح كان أيضا يعمل فلاحا في قرية الصفصيف[7].

ومن ثمّ، نستشف بأنّ المادة الخبرية التي ساقها هذا المصنف على الرغم من كونها لم تتجاوز بضع فقرات موجزة، إلا أنها تطوي في أحشائها مادة خبرية متناسلة بشأن الحوادث التي يُؤرخ لها، وزخما خبريا هائلا في أعماقها. وهو ما يضع بين يدي الباحث كمًّا معتبرا من النصوص المُعبّرة عن واقع حوادث متشعبة، جمعت بين التأريخ للشخصية، أو المنحى البياني الناطق بالمسار الحياتي "لمصالي الحاج في مراحل حياته الأولى، وكذا التأريخ للمقومات المُهيكِلة لجسم العلاقة ونقاط الترابط بين عائلة المُترجَم له وعائلة المُترجِم؛ بما معناه: التأريخ أيضا لعائلة "مصالي" الموسَّعة، وكذا العائلة الموسَّعة لصاحب المذكرات، بما تشتمل عليه من فروع وبطون، ومواضع استقراها، أو المواطن التي نزلت بها وتقيم فيها[8]. بالإضافة إلى المادة الوصفية التي تضمنتها هذه المذكرات عن ماهية الجغرافيا المُحتضنة لكيان العائلتين ومقوماتهما، وكذا طبيعة الوظائف المشتركة التي كانت تُشغل من طرف نفس عناصر العائلتين، أو ويمتهنها أفرادها شراكة[9].

ينضاف إلى هذا، جانب لا يقلّ أهمية عن سابقيه، والمتعلّق بالتأريخ للحياة الدينية للعائلتين، وهو ما أورد المصنّف جانبا منه، حين كشف عن طبيعة النشاط الذي كان والد مصالي[10] يضطلع به في شكل وظيفة دينية اجتماعية، تفصح عن ميولات العائلة وتوجهاتها الدينية، وتوقير أفرادها للشخصيات الدينية التي خلّدت أسماءها في حقل التاريخ، ومساحة الحياة الدينية بما تركته من بصمات في خدمة العلم والدين والمجتمع، شأن ما ذكره المصنف عن خدمة والد مصالي لضريح "عبد القادر الجيلالي" وقوامته عليه. كما طعّم ذلك المصنف بالتعريج على النشاط الديني كذلك لصهر مصالي وهو الشيخ "الحاج عبد القادر ممشاوي[11]"؛ والذي تمثّل في كونه

مقدم الزاوية الدرقاوية[12]. إضافة إلى ما تمّ بسطه، نقف على أنّ "محمد قنانش"[13] وهو يستعرض مظاهر داعمة للنقاط التي تجمع جسم علاقة العائلتين، تشدّ عضد سابقتها وتقويها، أشار إلى الزاوية الدرقاوية المنتسبة إلى الشيخ الحاج بن يلس، والتي كانت بالمكان الذي تقيم فيه العائلتين أو بنفس الحومة على حدّ تعبير المصنف، في غاية الأهمية لبيان حقيقة الرباط الديني الذي يصقل أوصال العائلتين، ويجمع شملها دينيا أو يوطد روح تلك العلاقة بينهما، أو في مسعى من المصنف للإعلاء من سقيفة المقويات الداعمة لمتانة الأواصر الاجتماعية والدينية والنسبية والبيئية والجغرافية، والمُؤسِّسة لكيانها وبنيان عرشها.

يغوص "محمد قناش"[14] في سرد تمظهرات الروابط الجامعة لشمل مادة العلاقة بين العائلتين إلى حدّ الإشارة إلى طبيعة المهنة المشتركة التي تمارس من طرف بعض العناصر من العائلتين أو النشاط المهني الذي لملم شمل المهنة الواحدة والمشتركة للعائلة، في مسعى صريح منه لتوسيع مساحة الروابط الناسجة للعلاقة والجسور المقربة بين الكيانين الأسريين، وذلك حين ذكر أنّ مهنة أخ مصالي الأكبر وصهره ووالده هو؛ أي "محمد قنانش" كانا يمتهنان مهنة واحدة؛ وهي صنع براميل الماء للبادية في الصيف، وأعواد الحرث في الخريف، وكل ما يهم الفلاحة في باقي السنة. وكذا ما أفصح عنه بشأن الشراكة التي تجمع بين أفراد العائلة في حضن تخصص مهني مشترك، من قبيل الشراكة في التخصص المهني الذي جمع بين عمّ "محمد قنانش" وأخ "مصالي الحاج"؛ حيث كانا متخصصين في صنع "القبيبات" لشرب الماء في المدينة[15].

إنّ ما بسطه "محمد قنانش" من تمظهرات تحدد طبيعة الأوصال والروابط المفصحة عن علاقته بمصالي الحاج، لا تعدو كونها محطة أولية كاشفة عن مقومات أرضية متينة للعلاقة في جوانبها الاجتماعية والاقتصادية-المهنية وأبعادها الدينية، ذلك أنّنا نجده بعد كل هذا العرض التمهيدي، يشرع في بيان المظاهر المحددة لمجموعة الظروف التي مهدت لنسج التعارف بين الشخصيتين مخصصا لذلك مبحثا عنونه بـ "أول معرفتي به"[16]. بما معناه؛ أنّ "قنانش" انتقل في مسار عمودي للتأسيس لكيان الروابط الجامعة بين العائلتين، حيث تناول ما يشدّ تماسكها من روابط جمعت بين الأصول، لينتقل إلى مقومات بنيانها عند الفروع إلى مظاهرها الدقيقة عند الشخصيتين المعنيتين. وعلى ضوء هذا يتبدى لنا أنّ المصنف يرمي إلى مدّ جسور العلاقة في أعماق الأصول، ويمدّ جذورها إلى مراتب متقدمة في سلّم الزمن، أو يمنحها عمرا طويلا من الحياة قبل أن تحيا حياتها بينهما.

يبني "قنانش" عرش علاقته الشخصية بمصالي على متن أحد أبرز محطات التعارف التي كانت بعد عودة مصالي من أرض الغربة؛ وذلك من فرنسا أيام الخدمة العسكرية، أين كانت المرة الأولى التي رأت عيناه مصالي بتلمسان سنة 1922 وعمره لم يتجاوز السبع سنين. أمّا المرة الثانية حسبما يذكر "قنانش" فقد رأى مصالي حينما زار تلمسان في صيف 1924[17].

لا نريد أن نتتبّع حيثيات ما ساقه "محمد قنانش"، وإنما نتغيّأ القول على أساس هذه الأرضية: أنّ النص في المذكرات الشخصية والحدث التاريخي في بحر مادتها، يستوعب مادة خبرية بحجم هائل؛ خصوصا إذا صادفت راويا قوي الذاكرة، مستوعبا لحيثيات الحدث وتفاصيله ودعائمه وملحقاته، ملما بخباياه، حريصا على عرض ما بين ثناياه، وعلى دراية واسعة بأبجديات الرواية وسرد الخبر ونسجه في هيكل قوي قادر على الصمود أمام تضارب الآراء وتعارض الأقوال وتباين المواقف وتعدّد الرؤى، وكان ضابطا بشكل محكم للمادة الخبرية التي تحتويها ذاكرته، متحكما في زمام أمورها؛ ذلك أنّ الحدث إذا ما أحسن الراوي لخبره تزيينه بكل القرائن الداعمة لعناصره المُقوية لرؤيته الكاشفة لعمق الحدث وامتدادات جذوره، وحقيقة أبعاده، وكل التمثلات ذات الصلة بروحه وجسمه، من شأنه أن يضع بين يدي الباحث كنزا خبريا هاما وفريدا من نوعه، يكون مُعينه على تغطية مساحة واسعة من العناصر المحتملة للبحث والقابلة له، والضرورية لإخراجه في قالب شمولي متكامل لا يغفل حقلا من حقول البحث في أرضه ولا زاوية من زوايا أركانه. كما تكون مادته كفيلة بالإحاطة بالعديد من الحقائق والوقائع والحيثيات التاريخية التي سكت عنها أصحاب التصنيف المصدري الذين أرّخوا لنفس الحدث، عجزا لفقر في المادة، أو عمدا صمتا مراعاة لخصوصية تاريخية أو شخصية ما، ونحو ذلك من الأسباب.

بيد أنّه لا يحسن بنا مغادرة بحر هذا المبحث دون الإشارة إلى أنّ من السمات التي تكاد تطغى على تصنيف المذكرات الشخصية: افتقارها إلى تنظيم الحقائق التاريخية، والتنسيق المنهجي لحيثياتها وفصولها؛ بحيث قد تكثر وتتكاثف في ناحية أو حدث وقضية تاريخية، وتجفّ وتنكمش في مناحي أخرى وزوايا قد تكون مهمة ورئيسة في تشكيلات الحدث ونسيجه، بما يخلق فجوات في سلسلة الحوادث[18]، هو ما سجّلناه في مذكرات في البعض من مواضع مذكرات "قنانش" على نسق ما أورده على سبيل المثال في الصفحتين التاسعة والعاشرة منها، أين وجدناه يطرق أحيانا ما تعلّق بما يجمع العائلتين، ثم ينتقل إلى وصف الأماكن التي تحدّد الجغرافيا الحاضنة لتلك الحوادث، ثمّ يرجع مرة أخرى لطرق ما يخص العلاقة؛ وهو وإن كان ينطوي على أهمية من حيث قيمة المادة المعروضة، إلا أنّ ايراد المادة دون

اخضاعها للسياق التاريخي بشكل دقيق، والانتظام في كشف المغزى، يوحي بتذبذب في ايراد الأخبار وعرضها على القارئ[19]. بالإضافة إلى أنّ اتصافها بالعرض غير الممنهج للحوادث بما يتناغم وسياقاتها التاريخية وأبعادها: السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية والدينية، ينبأ عن حجم التذبذب في مكونات الحقيقة التاريخية المتعلقة بنفس الحدث التاريخي بكل أبعاده وتجلياته، ويُصعّب مهمة تغطية الفجوات التاريخية الماثلة أمام القارئ الغير متخصص في التاريخ.

مع أنّنا ينبغي أن نأخذ في الحسبان: أنّ هذه المذكرات في الغالب، لا تصدر من باحث متخصص في التأريخ أو أكاديمي متعمق في طرائق الكتابة التاريخية وعلى دراية بمسالكها وإنّما من أي شخصية تحوز على مادة خبرية عايشت أحداثها أو ساهمت في صناعتها، مهما كان مستواها الثقافي أو تكوينه العلمي؛ بما معناه ليسا عمليا أكاديميا أو بحثا تاريخيا حتى نخضعها لسلطان المنهج التأريخي بكل شروطه ومقاييسه، وإنما مساحة الأهمية الواسعة فيها تكمن فيما تعلّق بمادتها الخبرية خصوصا إذا حازت من المصداقية والأمانة العلمية الحظ الأوفر، ويبقى الدور في اخراجها على الهيئة العلمية القائمة على مناهج البحث التاريخي وأسسه مهمة الباحث والمؤرخ، حتى تعظم أهميتها، ويتنامى حجم الاستفادة المعرفية والتاريخية منها.

### III - النص والحدث بين جدلية احياء الحقائق التاريخية ودفنها:

#### 1 - مصداقية الحدث

كنّا أسلفنا الذكر، أنّ من بين مقومات قوة النص الخبري وقدرته على استيعاب خبايا الحدث والإفصاح عن تجلياته في صورة متكاملة مستوفية لأبعاده ومكامن روحه، أن يصدر ممّن عايش الحدث أو صنع ملاحمه وبطولاته، وغذى فصوله، وأسهم في وقائعه، كما هو حال بعض مصنفي المذكرات الشخصية، وامتاز بالصدق والأمانة في نقل الخبر، ونحو ذلك من المؤهلات العلمية والشخصية للكتابة التاريخية الجادة والمتميزة.

كما كشفنا في محطات متفرقة من جسم هذه الورقة البحثية عن أنّ وجود الكاتب في العصر الذي يسجل حوادثه ويؤرخ له، لا يعني أنّه حاز من مقومات القدرة على التميّز في انتاج مادة مذكراته الشخصية، والإحاطة الدقيقة بجميع نواحي الحدث التاريخي، ما لم يتخلّ عن الدوافع المخلّة بالكتابة والتصنيف، والأغراض المسيئة إليهما، على نسق: اتباع الهوى، والتحيّز، والخشية والرغبة في المنفعة[20]. أمّا ما تعلّق بما يمكن حشره في خانة عدم إمكان الإفصاح عن خفاياه من قبيل بعض القضايا السياسية والأمور العسكرية الحساسة إلى درجة احداث أزمة واضطراب وعدم الاستقرار، فيحسن تأجيلها إلى أن يحين أوانها، أو ما اختصّ ببعض القضايا التاريخية التي ظلّت قابعة في مساحات الظل نظرا لحساسية حيثياتها وخطورة تداعياتها على أعراض البعض من العائلات، والمخيال الجمعي، شأن عمليات الاغتصاب التي اقترفها وحوش الاستدمار الفرنسي للجزائر في حق المرأة المكافحة في سبيل القضية الوطنية التي وقعت في قبضتهم، ونالت ما نالت من صنوف التعذيب والتنكيل وحتى المس بشرفها، فذلك الصنيع من التكتم المؤقت: يمكن تبريره بالسكوت مراعاةً لمصلحة استقرار الدولة والمجتمع.

نعم، لا ننكر أنّ هذا الصنيع هو ضعف حاق عملية انتاج المعرفة التاريخية، وأحد سبل التماطل في الجهر بالحقائق وتأجيلها، لكن كما يقال أنّ للضرورة أحكام، فلا يحشرون -فيما نعتقد- في زمرة المتمردين على سنن البحث العلمي-التاريخي وتعاليمه، ويظلّ الاجتهاد في اظهار الحقيقة هو الديدن، ولكن في حذر ويقظة واحترافية وذكاء، أو يبقى من بين أسلم السبل للكشف عن حيثياتها: هو استخدام العقل وعين البصيرة في نقل الحدث باحترافية عالية تتفادى المسّ بالأشخاص والإساءة إلى الحقيقة في نفس الوقت.

في هذا السياق، لو رجعنا إلى المادة التاريخية التي حشرها مصالي الحاج في مذكراته، لوجدنا أنّ بعض نصوصها لا تخلو من نزعة الذاتية في الوصف لمدينة تلمسان مسقط رأسه وعاصمة الزيانيين في العصر الوسيط وأحد المراكز الحضارية البارزة في ذات الفترة، إذ نجده يصفها بقوله: " مدينة تمسان لها سكان على مقاسها، فهي حقا جنة عدن على سطح الأرض، فالنساء والرجال والأطفال كلهم مرحون والبشاشة تعلو محيا الجميع. فهم يميلون إلى التفكير والغناء ويحبون الطرز والنسيج"[21]. أو ما ذكره عن أهلها بأنّهم كما يقول "متدينون كثيرا"[22]. وهو في الحقيقة وصف أدبي يفتقر إلى الموضوعية، فبالإضافة إلى ما اتسمّ به من المبالغة في وصف المدينة بالجنة مع أننا لا ننكر أنّ تلمسان تعدّ من بين أعظم مدن الجزائر وأبرزها في تاريخها خاصة في الفترة الوسيطة إلا أنّ الواصف ينبغي أن يتجرّد في الوصف من ذاتيته وبالأخص إذا كان من أهلها وسكانها، ينضاف إلى ذلك طغيان صفة التعميم والأحكام المطلقة في مادته، فليس الكل محبا للغناء، وليست البشاشة حكرا على أحد دون غيره، وحين كان الاحتلال الفرنسي يدمر البنية التحتية ويهدم عرش الأخلاق وبنيان الشخصية الجزائرية كان ظلام التعسف يعصف باستقرار نفسية كل الجزائريين، ويحرمهم متعة الراحة والتمتع بالحياة في وطنهم وهم مسلوبو الحرية ويعيشون تحت سقف الاحتلال، وأنّ للبشاشة أن تعيش

كل الأوقات في قلوبهم وتشع في وجوههم قبل أن يروا نور الاستقلال. ناهيك عن المبالغة في قوله أنّ أهل تلمسان متدينون كثيرا، ولسنا نقصد أنّهم غير ذلك، وإنما كل الجزائريين متدينون كثيرا، وفهم المقصرون في كل ربوع الوطن، ولا يوجد هناك تفاوت كبير في نسبة التدين من منطقة جزائرية لأخرى، وإنما يقوى ويضعف في تلك الفترة بحسب النهضة العلمية والدينية التي تعرفها كل منطقة من مناطق الوطن على كاهل ما تضطلع به مؤسسات التربية والتعليم العامة والخاصة. وإن كنّا نقدر مسعى هذا المصنف "مصالي" في مذكراته وغايته ومقصده النبيل من الحديث عن مدينة جزائرية كعينة من عينات الوطن الفسيح، فإنّ مقصدنا من التعليق على ما ذكره، ينزوي في خانة كشف أساسيات التصنيف وإيراد الخبر، ذلك أنّه يتطلب على الراوي أن يبذل قصارى الجهد لإخراج خبره من ذاكرته وعقله وقلبه خاليا من كل نوازع الذاتية والمبالغة والإفراط، ونشد الموضوعية والاعتدال في الوصف حسبما يقتضيه الواقع والحقيقة والمقام والسياق.

**2 - الصمت المميت**

نقصد بالصمت المميت: السكوت عن بعض الحوادث التاريخية المفصلية في حلقات سلسلة حوادث التاريخ من طرف مصنفي وكُتّاب المذكرات الشخصية مع قدرتهم على الافصاح عن تلك الحقائق، لا لشيء سوى لأغراض نفعية شخصية، وليس لدوافع المصلحة الوطنية والحفاظ على كرامة الأشخاص وتأمين أعراضهم بالسكوت عن المسكوت عنه قبل أن يحين أوانه أو الافصاح عنه على الشاكلة التي تضرّ أكثر مما تنفع.

ولا غرو، أنّ الصدق في الكشف عن عيوب الماضي وأخطائه وزلّات صانعيه أولى من الصمت عن ذكرها، وتحاشي الجهر بالحقيقة مع الدراية التامة بتفاصيلها وحيثياتها؛ ذلك أنّ الحقيقة بأثقالها وحمولتها الكبيرة أخفّ من التضليل ولو كان خفيفا، دون أن يخفى علينا أنّ اخفاء الحقيقة مؤقتا في البعض من الأحيان أو الظروف يعتبر عملا وطنيا وإن كان على حساب الحقيقة التاريخية وتجاوزا لسبيلها وغايتها، وهو ما يتطلّب المسارعة للجهر بها فور انتفاء الضرورة، والظروف القاهرة التي حالت دون اطلاق صراح الحقيقة.

ولأهل الاختصاص في المنهجية التاريخية، نصوص توضيحية جد نافعة في هذا الباب، فهذا "حسن عثمان" يقول: "ولا ريب أنّ الكشف عن عيوب الماضي وأخطائه تفيد إلى حدّ كبير في السعي إلى تجنب عوامل الخطأ في الحاضر، وعدم الكشف عنها، يعدّ تضليلا وبُعدا عن التبصر والمصلحة الوطنية... ولا يمكن أن يكتب التاريخ بغير التوصل إلى الوقائع الصحيحة"[23].

ومن ثمّ كان الجهر بالحقيقة في غاية الأهمية خدمة للكتابة التاريخية وتطعيما لحقل التراث الانساني الذي يزخر بالحوادث والنصوص، ذلك أنّ السكوت عن أي حلقة من حلقات سلسلته وقضية من قضايا نسيجه أو حادثة من حوادث فصوله، قد يوحي بأنّ الحدث لم يقع، وخصوا إذا كان غيره ذكره وهو تجاهله وهو في الأصل من الشهود عليه والمعاينين له أو حتى من بين صانعيه.

**IV- النص ومسافة الأمان:**

**1- الصدق الآمن**

نسعى على كاهل هذا المبحث إلى ملامسة مدى حرص أصحاب المذكرات الشخصية على ايراد الحقائق التاريخية بصدق وأمانة، وعلى الصفة الطبيعية التي تقتضيها دون تزيينها بحوادث من نسج المصنف وصنعه أو إضافات من عنده؛ لإخراجها في حلة متميزة حتى وإن كانت الصورة غير صادقة بشكل تام. فيكون الصدق الآمن في الكتابة والتصنيف يقتضي مراعاة الأمانة، وذكر الحوادث وحيثياتها على طبيعتها وصورتها الحقيقية دون اضافات تجميلية أو نقصان لغاية شخصية، والحرص على انتاجها في صورة متكاملة دون بخل أو اطناب. فمن الطبيعي أنّ مادة المذكرات الشخصية حتى تكون أكثر قوة علمية، ومصداقية تاريخية، أن يتحرّى صاحبها الصدق والأمانة العلمية، والحرص الدؤوب على الإضافة العلمية الصادقة، والتميّز في الطرح البناء، والإبداع في الإخراج الآمن، فإذا عمد إلى السرد الخبري دون تمحيص ونقد وإنّما الضح الخبري دون تمييز السمين منه من الغثّ والصحيح من السقيم، فقد أضرّ بالمادة التاريخية أكثر ممّا نفع أهلها والمتهمين بها[24]، وظلّت النصوص التي تحتويها أجسام تلك المذكرات مجرد حكايات جوفاء ونصوص عاقرة عن ولادة الحقائق والحوادث النافعة، لا تسمن ولا تغني من جوع في حقل الكتابة والبحث التاريخي.

ولعلّه ذلك الذي أشار إليه مؤرخنا ابن خلدون فيما أورده بقوله: "إنما هي حوادث لم تعرض على أصولها، وأنواع لم تعتبر أجناسها ولا تحقّقت فصولها ،يكرّرون في موضوعاتهم الأخبار المتداولة بأعيانها ،إتباعا لمن عني من المتقدمين بشأنها ... فيبقى الناظر متطلعا بعد إلى افتقاد أحوال مبادئ الدول ومراتبها ،مفتّشا عن أسباب تزاحمها أو تعاقبها باحثا عن المقنع في تباينها أو تناسبها"[25]. وصدق الباحث "حسين مؤنس" حين قال في مجال الكتابة التاريخية: أنّ "صدق المؤرخ هو رأس ماله"، ويضيف قائلا: "واعلم في النهاية أيها المؤرخ أنك تخدم الناس بعلمك وصدقك فيما تكتب، وأنت إذ تخدم الناس، فإنّ الله مجازيك على هذا الصدق بقدر ما عندك من صفاء قلب، والقلب في

المصطلح الاسلامي هو الضمير في مصطلحنا اليوم، والقلوب ميزان الأعمال، وفيصل القيم، وصفاؤها أساس العلم والنور والتقدم والرخاء"[26].

وحتى ننأى بأنفسنا عن ظلم غيرنا في مسعانا البحثي هذا حين الاستدلال على ما نبسطه من طروح، نشير إلى أننا لا نتهم أحدا من الكتاب بعينه بقدر ما نجتهد في اثارة المواطن التي تتخلل مادة الذكرات الشخصية الخاضعة للدراسة؛ والتي تحتمل أن تصدق مادتها على ما نؤسس له أو قد نجانب الصواب في اجتهادنا، فلو رجعنا إلى ما أورده "محمد قنانش" وهو يصف المشاهدة الكاشفة لمحطات التلاقي بين شخصه وشخصية مصالي الحاج، في الفترات التي لا زال يرمقه من بعيد فحسب، نقف عند مقولته: "وحين خرج الأمير من المدرسة، التي كانت بساحة "الخادم" وقد أصبحت الآن ساحة "القلاسي" وكانت خاصة بالبرجوازية الفرنسية. ووقفنا نحن الأطفال بعيدا عنها ننظر ما يجري أمامه وهو في حالة هيجان كأنه غير راض عما يرى. وهناك عرفنا أنه حجي مصلي كما كان يدعى في المدينة[27]. والذي استوقفنا عنده بشكل أخصّ قوله: "كأنه غير راض عما يرى"، فهل أدرك المصنف حقيقة ما يختلج نفس مصالي من رفض واستنكار لما يجري كما يقول وهو ليس بعد طفل يراقب الحدث مع بقية الأطفال، أم أنّه أدرك ذلك فيما بعد؟ وهو ما لا يفصح عنه النص الوارد بين أيدينا بشكل أدق، إذ أنّه يخيّل إلينا أنّه أدرك ذلك ورفاقه فور مشاهدتهم ومعاينتهم للحدث مع أنّه طفل صغير، وأنّ مصالي لم يبدِ أي سلوك حسبما يذكر سوى ملامح الغضب كما يصف، ولسنا نتهمه بقدر ما نحن لم نرتوي كفاية بما ساقه.

ومن باب الصدق والأمانة، فإنّ مقومات تحرِّي الصدق لا تقتصر على ما ذكرنا ولا على ما سنذكره، وتظل مقارباتنا جدّ قاصرة عن استيفاء ما ينبغي أن يكون. لذلك دعنا نقول: أنّ مجانبة الصدق في الكتابة التاريخية ما كان يقتصر على تحريف الحقائق وتزييف الوقائع، وإنّما يساهم اغفال ذكرها والتغاضي عن ذكرها: أحد مظاهر التعدي على الحقيقة وصناع الحوادث التاريخية والمساهمين فيها. ونحسب أنّ تغافل بعض مصنفي المذكرات الشخصية حول تاريخ الثورة التحريرية الجزائرية الكبرى-عن قصد أو غير قصد- عن التعرّض في مذكراتهم لدور بعض رجالات الثورة ومن قدم تضحيات جسام في سبيل القضية الوطنية، أو حتى من ساهم ولو بجهد قليل حسب طاقته، هو تحريف للحقائق وتزييف لها، سواء كان الغرض تقزيم صنائعهم أو الاستهانة بها، ونحو ذلك من الأسباب الغير مشروعة للإعراض عن ذكرها[28].

**2- مساحة الحرية في الكتابة بين طاعة الذات واحترام الذوات**

مساحة الحرية في الكتابة التاريخية مضبوطة بقواعد البحث التأريخ، ومناهج الكتابة والتأليف، فمتى اتسع مجال احترام المصنف تلك القواعد والنصوص المنهجية الناظمة للسبيل السليم المُؤدي إلى بر أمان الحقيقة التاريخية، كان إلى الحقيقة التاريخية أقرب وإلى حقلها ينشد، وكلّما ضاق مجال التقيّد بضوابط البحث كان عن طريقها أضلّ، وعن روحها أبعد.

إنّ القناعة الراسخة التي ينبغي أن لا تغادر مخيال المصنّف والمدون للحقائق التاريخية أن ينشد اخراج مادته على أحسن هيئة من حيث جودة الحدث، وقوته، ومصداقيته، وغناه بالكنوز الخبرية، وغزارة دلالاته وصفاء معانيه. لذلك ينبغي على المؤرخ كما قيل: أن يكون بعيدا كل البعد عن حبّ الشهرة والظهور على متن الحدث ولو كان زائفا، وأن لا يركب سفينته يروم المناصب والتدرج في سلالم الجاه الألقاب، ويتصيّد به الكسب وتكديس الأموال، بل يكرس عمله لخدمة الحق والقضايا الانسانية؛ ذلك أنّ ثمن الحقيقة العلمية المعنوي أغلى من كل ألوان الكسب وصنوف المناصب المادية إذا كانت الأخيرة على حساب الأولى[29].

بالعودة إلى نصوص مذكرات "محمد قنانش"، التي تنطوي على مادة خبرية هامة وغزيرة، تستوقفنا ما أورده في مادتها المصنف وهو يصف الهيئة التي رأى عليها مصالي الحاج في المرة الثانية التي وقعت عينه عليه، حين زار مصالي تلمسان بمفرده في صيف 1924، إذ يقول: رأيته "ببذلته الأوروبية، وطربوشه التركي الطويل، ومشيته المستقيمة، وخيزرانته الأنيقة وكانت الموضة آنذاك والأناقة تستدعيها"[30]. وممّا يستوقفنا عند هذا النص:

نلمس أنّ هناك نوع من الاشادة بالبذلة الأوروبية واعتبارها رمز الأناقة في الوقت الذي كان الأولى التباهي بما تحمله الثقافة الجزائرية من أبعاد رمزية للبذلة الجزائرية والهيئة التي تعكس الشخصية الوطنية آنذاك. ولقد أردنا أن نقول: أنّ المصنف في مسعاه للتجرّد من روح الأنا، والسعي وراء المصداقية والموضوعية، كان يحسن به ايراد الوصف دون ابداء الإعجاب بالهيئة، والاقتصار على الإعجاب بالشخصية بغض النظر عن هيئتها في اللباس. وهو وإن كان يوحي لنا أنّ المصنف ما كان يقصد الاشادة بالهيئة في اللباس وإنّما بقوة الشخصية إلا أنّ الدلالة الظاهرة لا تقتصر على ما يقصد بل تتعداه إلى ما يقصد ونقصد.

أشار المصنف إلى أن الموضة والأناقة في ذلك الوقت كانت تقتضي ذلك النمط من اللباس، وفي الوقت نفسه أردف كلامه بذكر الواقع الذي يعيشه المجتمع الجزائري بعد الحرب العالمية الأولى، بأن كان يعيش في ضيق شديد على كافة

المستويات الاقتصادية والاجتماعية والنفسية، وهو ما يوحي بعدم التناغم بين الواقعين الذين أوردهما وعدم الانسجام النصي في الحدث، اللهم إذا كان مقصده: هو التعبير عن روح الإعجاب الذي انتابه يوم شاهد مصالي؛ أي سنة 1924، بحكم أنّه كان حينها لا يزال طفلا صغيرا لا يميز بين الثقافة الجزائرية وروحها وما تسعى الإدارة الاستدمارية بثه من سموم في جسم الهوية الجزائرية والشخصية الوطنية لإحداث شروخ فاضحة بها والسعي لهدمها.

**3- سلطان العاطفة**

العاطفة غريزة فطرية كامنة في الكيان البيولوجي للإنسان، وللعاطفة حدودا إذا تراوحت مادتها ضمن اطارها ظلّت تحافظ على سلامتها وحقيقتها المشروعة وكنه وجودها وبثّها في جسم الغرائز البشرية، أمّا إذا تجاوزت تلك الحدود الضابطة لمجالها المشروع؛ فقد تجلب على صاحبها من الويلات ما لا يحمد عقباه ولا تحسن عاقبته، في أي مجال كان، ومن ذلك في حقل الكتابة والنشاط العلمي-التأليفي، ومن ذلك الرواية التاريخية التي تصدر من مشكاة أصحاب المذكرات الشخصية.

فلا يساورنا الشك قيد أنملة، أنّ الانتاج التاريخي-العلمي وفن كتابة المذكرات الشخصية قد ينفصل عن قواعد الكتابة وشروطها كما تُجليه مناهج البحث في ذلك المجال، وحتى وإن لم تحترم كافة الشروط المشروعة والنصوص التنظيمية التي تُؤهل العمل ليرقى إلى مصاف الأعمال الإبداعية، فإنّ ذلك لا يعني مطلقا التخلي عن أدنى أبجديات فن التأريخ والكتابة، من قبيل التجرّد من قيود العاطفة ومطالبها الواسعة ورغباتها الزائفة.

إنّ المرجعيات التي ينبغي أن تُحترم في حقل الكتابة في مجموع قوانينها ومناهجها حتى وإن كانت تحترم الذوق فإن الأصل هو الرجوع إلى العقل[31] والاستعانة به على الفصل في القضايا والمسائل التاريخية التي تسلّل التناقض إلى جسم أحداثها بناء على تعدد الروايات الصادرة بشأنها أو تضاربها؛ لأن في ذلك النجاة من سبيل الخضوع لسلطان العاطفة على حساب الحقيقة التاريخية. فميولات الإنسان ودوافعه وعواطفه -كما يرى المتخصصون في الدراسات النفسية- تؤثر في تفكيره، وتجعله يقع في أخطاء التحيّز الانفعالي والعاطفي[32]، ولا يخفى على كل أحد من المهتمين بالتاريخ الوطني-الجزائري خصوصا ما تعلّق بتاريخ الحركة الوطنية، التبعات الخطيرة التي جنتها الكتابة التاريخية -وبالأخص حقل روايات المذكرات الشخصية- تلك التي استجاب أصحابها إلى مطالب العاطفة ولم يتجرّدوا من نوازعها، فأنجبوا نصوصا على أهميتها في البعض من جوانبها، زادت طين الغموض بلّة ونافذة الرؤية ظلمة؛ ففي الوقت الذي كان يُنتظر من أصحابها إزالة الغمام الذي يُخيّم على بعض الحوادث ويكتنفها، ساهمت عن قصد أو دون قصد في الإضرار بالحقيقة التاريخية، وتحميل النصوص ما لا طاقة لها به، ولي عنقها، وإيرادها في غير سياقاتها التاريخية، ومواطنها الطبيعية، ومساقاتها السليمة. وإن كانت مادتها، قد وسّعت من دائرة التضارب من حيث لم تعط من الدلائل والبراهين ما يكفي للاستدلال والبرهنة، فإنّه يمكن القول أنّها قد أثارت في البعض من الأحيان مسائل بحثية جديدة وإشكالات كانت خفية ومغمورة.

ويحسن بنا أن لا نغادر هذا الموطن البحثي دون الإشارة إلى ما أورده في هذا السياق الباحث: "حسن عثمان" حين قال: "وقد يكون الإنسان في حياته اليومية أميل إلى تصديق ما يصادف هوى في نفسه، وأبعد عن تكذيب ما يصطدم بعواطفه ورغباته"[33]. وعلى ضوء الطرح الذي يؤصّل له هذا الباحث، يتبدّى له أنّ أصحاب النفوس الزائفة غالبا ما يكذبون وينافقون ويغرّرون للوصول إلى أغراضهم ومطامعهم. ويضيف ذات الباحث في نفس المضمار قائلا: "أوليس ذلك أدعى إلى الخداع والبعد عن الحقيقة السافرة؟ فإذا كانت هذه هي الحال فيما يتعلق بالحاضر ،فما بالنا بحوادث الأمس ،والأمس البعيد؟"[34].

إنّ من الصفات الراسخة في مناهج البحث وأدبياتها وتنظيماتها، الاستعداد النفسي والعقلي لإنجاز العمل التأريخي باحترافية وجدارة وحذق ومهارة، ومعلوم أنّ تعهّد الأعمال البحثية على هذا النسق من شأنه أن يقود إلى أن يصير ملكة، وقد قيل: أنّ الأفعال إذا تكررت، ومارستها النفس حتى رسخت على ذات الكيفية والنسق، صارت ملكة؛ بما معناه تكون مكتسبة بطريقة آلية تحت كاهل جهد منظم ودوري، كما تكون عادة وخلقا، والذي يقوم بالإضافة على ما سبق على الاستعداد الفطري والقابلية الجبلية أو الطبيعية[35].

ومن ثمّ كان كبح جماح العاطفة وتقييدها بسلطان العقل من أنجع سبل تحري الحقائق التاريخية وطُرق بلوغ مرامها، وكان عدم التحيّز من الصفات الأساسية لأي مؤرخ[36] أو مهتم بالكتابة التاريخية والتصنيف فيها، فلو استسلم لنوازع الميل وجواذبه، وانساق وراء مطالب الإعجاب وروافدها، فقد ظلم غيره وجنى على التاريخ من حيث هو يدري، فلا ينبغي أن يتناغم مع مادة الكراهية التي تنبت في صدره حيال قضية أو جهة أو شخص، فينهال عليها أو عليه بالافتراءات والتطاول والاعتداء، ولا ينساق وراء مواطن الإعجاب لحدث تاريخي أو واقعة أخذت مكانا عميقا في نفسه، فيكرمها بأخبار تفوق طاقتها، وتتجاوز مصداقيتها، وتتعدّى على حدودها، فيضرّ بها من حيث أحبّها أو اعجب بحيثياتها؛ لأنّه أطاع هواه ولم يهوى الحقيقة التاريخية، وأرضى ذاته وأسخطها، وكان ديدنه الشهرة

أو الاتجار والكسب وبيع الحقيقة بأثمان بخيسة ودراهم معدودات.

**4- النقد البناء**

من المتعارف عليه أنّ الكتابة التاريخية تقتضي سلوك سبيل منهج علمي كطريق سليم لعرض المادة الخبرية على الهيئة المثلى، أو النسق السليم، كما أنّه السبيل الذي ينبغي على الكاتب والناقد ان يمتثل لأوامره وقوانينه وتنظيماته وتوجهاته، حتى يعرض نصا متميزا، يحتوي على مقومات الابداع، ويفصح عن قدرة الكاتب والمؤلف على سبر غور الحقيقة التاريخية أو الدلالة السليمة للحدث أو المغزى من دراسته، واكتشاف خباياه في ثوب بنية جمالية تشمل الشكل والمعنى والدلالة. وقد صدق من قال: أنّ الكاتب والمؤلف الناقد هو قارئ لنص ابداعي ومنتج لنص جديد بناءً على مجموع القواعد والتصورات المسبقة لديه، مُراعيا ما يفرضه النص في حد ذاته من جمالية وإبداع وقوة في المعنى والدلالة، وذلك طبعا وفق المنهج النقدي المتخصص في ذلك المجال من البحث[37].

ولو خرجنا مرة أخرى عن الحقل النصي الخاضع للمدارسة، وألقينا نظرة على مادة مذكرات مصالي الحاج، فقد نجد من النصوص التي تعيننا في مسعانا هذا لتقوية طروحنا؛ وذلك حين تطرق إلى الزاوية الدرقاوية وطريقتها أو جمعيتها الدينية كما أسماها، إذ بعدما بيّن أنّهذ عائلته تنتمي إلى هذه الطريقة، وأفصح عن مؤسسها التاريخي بمنطقة تلمسان، والمبادئ التي تقوم عليها، والتراتبية الدينية التي تنتظم عليها هيكلتها من شيخ ومريدين، والشيوخ الذين تعاقبوا على مشيخة الزاوية، نراه ينتقد بعض السلوكات الأسطورية التي احيطت بحياة أحد الشخصيات التي ترأست الزاوية وهو: الشيخ السيد الحاج محمد الهبري، من قبيل ما قيل بشأنه: أنّه كانت له السلطة على التنقل مسافة ألف كيلو متر في رمشة عين[38]. ومن المعلوم أنّه لا عقل يقبل ذلك، وإن كان أنصار ذلك، يحشرونه في خانة الكرامة والخصوصية التي يمتاز بها الأولياء، ولكن ذلك لا يمكن أن يسكت الألسن الناطقة بالحقيقة؛ التي مفادها أنّ تلك الأقاويل خرافات وأساطير لا تموت بصلة لا إلى الشرع ولا إلى العقل، وهو ما تنبّه له المصنف حتى وإن كانت عائلته تنتمي إلى تلك الطريقة وتدين بالولاء لشيوخها.

**V- النتائج:**

على ضوء هذا الجهد البحثي، كان من بين أبرز ما تمّ رصده كاستنتاجات بحثية ما تنطق به النقاط الموالية:

بقدر ما يتحرّى مصنّفو المذكرات الشخصية مساحات الموضوعية ويصولون ويجولون في حقولها، بقدر ما تزداد نوافذ الإضاءة التي تشعّ بضوء الحقيقة، وتتنامى قدرتها على الإشعاع والتنوير. كما أنّه وفي غياب الأنا لا تغيب الحقيقة، وفي التجرد من العاطفة وضبطها تسلم المادة التصنيفية من مظاهر الافتراء وصنوف الاعتداء. هذا، وتعدّ قوة النص، وسلامة الحدث في المذكرات الشخصية من قوة الذاكرة، وتحري الموضوعية والأمانة العلمية. كما أنّه كلّما كان مصنّف المذكرات الشخصية ملمّا بمناهج التأريخ، كلما تنامت قدراته في انتاج مادة نصية قادرة على استيعاب مكنونات الحدث، وأبعاده، وتمثّلاته في سياقاته التاريخية، واستجلاء روح الحقيقة التاريخية وكنوزها الغائرة في عمق الحدث والكامنة في زواياه وأركانه. ويعدّ الإعراض عن الجهر بالحقيقة التاريخية مع الإحاطة بحيثياتها لأسباب شخصية أو غير موضوعية: صمتا مميتا قاتلا لروحها هادما لعرشها.

ولا شكّ، أنّ الكتابة لأغراض التكسب والاتجار والشهرة على حساب الحقيقة التاريخية: جرم كبير في حق التاريخ وتراث الانسانية، وتجنٍّ فاحشٍ على صانعيه، وتزييف لأمانة الأجيال التي ينبغي أن تُحفظ حوادثها بصدق ومصداقية وموضوعية في أمان.

وممّا يوصى به في هذا السياق: أن تُخضع مادة المذكرات الشخصية للدراسة التاريخية الدقيقة، وفق منهج البحث التاريخي وأبجدياته، وتُعرض مادتها على القصاص النصي الذي تحتويه المادة المصدرية المدونة؛ التي تعالج ذات الحدث، والشهادات الحية من لدن من وقف على الحدث أو ساهم في نسيج فصوله، إن وُجدِت. كما نوصي بتكثيف الجهد التوعوي بأهمية الأمانة في الكتابة التاريخية ومراعاة الحقيقة في مسارها من لدن حاملي النص التاريخي في صدورهم، من خلال إقامة ندوات وملتقيات وأيام دراسية تحسيسية، يحضرها المجاهدون وشهود الحدث التاريخي سواء عن كثب أو سمعوه ممّن صنعه، ويشرف عليها المؤرخون والباحثون وأهل الاختصاص في التاريخ ومنهجية كتابته.

**VI– الهوامش والإحالات:**

(1)- محمد قنانش، ذكرياتي مع مشاهير الكفاح، دار القصبة للنشر، سعيد حمدين، الجزائر، 2007. مع أنّنا أخضعنا إلى صف هذا مادة كمذكرات مصالي الحاج للمدارسة، ولكن بشكل جد محدود في جسم دراستنا هذه.

(2)- حسن عثمان، منهج البحث التاريخي ، ط8 ، دار المعارف ، القاهرة ، 2000 م، ص81.

(3)- قنانش: المرجع السابق، ص09-10.

(4)- مصالي الحاج: هو حجي بن أحمد بن حجي بن سي بوزيان وابن فطيمة صاري، ولد في 17 ماي 1898 بمنطقة مصلي بتلمسان، انظر حول حياته: مذكرات مصالي الحاج، 1898-

1938، ترجمة، محمد المعراجي، منشورات ANEP، الجزائر، 2007، ص09، قنانش، المرجع السابق، ص09.

(5)- قنانش: المرجع السابق، ص09.

(6)- والتي كانت تضم حي "الرحيبة"، وحي "سيدي الوزان"، وعرصة ديدو"، وحي "مصطفى". وحتى هذه الأحياء، حظيت بوصف من المصنف، من حيث مداخلها، وسطوحها المتقاربة والمتداخلة المتشابكة، انظر: قنانش، المرجع نفسه، ص09.

(7)- المرجع نفسه، ص09.

(8)- المرجع نفسه، ص09.

(9)- المرجع نفسه، ص09.

(10)- توفي سنة 1938 عن عمر يناهز المائة سنة.

(11)- قنانش، المرجع نفسه، ص09.

(12)- المنتسبة للشيخ "الحاج بن يلس آنذاك، والذي حسبما يذكر مصالي، أنه أول من ترأس الطريقة الدرقاوية في تلمسان. والمؤسس التاريخي للدرقاوية هو السيد العربي الدرقاوي. وقد رأت النور هذه الطريقة في منطقة تلمسان على الحدود الجزائرية المغربية منذ زمن بعيد جدا، وانتقل تأثيرها من شمال افريقيا حتى إلى المشرق. انظر: مذكرات مصالي، ص13.

(13)- قنانش، المرجع نفسه، ص09.

(14)- المرجع نفسه، ص10-11.

(15)- القبيبات: هي أوعية خشبية أو أواني تصنع من من الخشب لوح العرعار، ذات رائحة طيبة.

(16)- قنانش، المرجع السابق، ص10.

(17)- المرجع نفسه، ص10-11.

(18)- وللباحث: حسن عثمان كلام قريب من هذا، انظر: حسن عثمان، المرجع السابق، ص165.

(19)- قنانش: المرجع السابق، ص09-10.

(20)- انظر ما أورده في هذا الشأن: حسن عثمان، المرجع السابق، ص82.

(21)- مذكرات مصالي، ص11.

(22)- المرجع نفسه.

(23)- حسن عثمان، المرجع السابق، ص18-19.

(24)- أمين محمد سلام، قواعد البحث العلمي ومناهجه ومصادر الدراسات الإسلامية، مؤسسة رام للتكنولوجيا والكومبيوتر، الأردن، 1995م، ص17، سعد الدين صالح: البحث العلمي ومناهجه النظرية "رؤية إسلامية"، مكتبة العارفين، القاهرة، 1993م، ص10.

(25)- ابن خلدون، المقدمة، ص04، انظر كذلك: محمد ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج1، تح، أبي الفدا عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987م، ص5-6.

(26)- حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1984، ص221.

(27)- قنانش، المرجع السابق، ص10.

(28)- وقد أشار الباحث: "أحمد بن جابو" في مقدمة رسالته للماجستير حول: دور سي امحمد بوقرة في الثورة الجزائرية، إلى أنّ الشخصية التي خاض غمار دراسة دورها في القضية الوطنية التحريرية لم تحظ بالذكر الكافي لجهودها في حقل الكتابة، حتى أنّ غياب تداول اسم هذه الشخصية على ألسنة الجزائريين وكأنه يوحي إلى انكماش الدور المُضطلع به من طرفها في سبيل تحرير الوطن من المحتل الفرنسي، والحقيقة التاريخية أنّ لسي امحمد بوقرة أدوار قيادة وجهود ثورية في سبيل مناهضة الاحتلال ومقاومته معتبرة، تحتاج إلى من يجلها إلى السطح ويكشف خباياها، انظر: أحمد بن جابو، دور سي امحمد بوقرة في الثورة الجزائرية، رسالة ماجستير في تاريخ الثورة الجزائرية، كلية العلوم الانسانية، جامعة الجزائر، الجزائر، 2000-2001، ص (ب).

(29)- للوقوف على تفاصيل مستفيضة في هذا المضمار، انظر مادة أورده: حسن عثمان، المرجع السابق، ص19.

(30)- قنانش، المرجع السابق، ص11.

(31)- في هذا السياق، انظر دراسة الباحثة: لبنى لونانسة، النقد التطبيقي في الرحلات المغربية في القرنيين السابع والثامن الهجريين، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة باتنة، الجزائر، 1434-1435هـ/ 2013-2014م، ص164.

(32)- نجاتي عثمان حسن، القرآن وعلم النفس، ط7، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2001م، ص153.

(33)- حسن عثمان، المرجع السابق، ص83.

(34)- المرجع نفسه، ص83.

(35)- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، دار ابن الهيثم، القاهرة ، 1426هـ/ 2005م، ص350، عثمان حشلاف، "التمكن اللغوي أساس تحصيل العلوم الانسانية وشرط للقيام برسالة المعلم "، مجلة المبرز، العدد الثالث عشر، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية، بوزريعة، جوبلية – ديسمبر ، 1999م، ص44.

(36)- وقد فصّل في هذا بشكل كبير الباحث: حسن عثمان، المرجع السابق، ص19.

(37)- لونانسة، المرجع السابق، ص163-164.

(38)- مذكرات مصالي، ص13.

## VII- المراجع

- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج1، تح، أبي الفدا عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.

2- ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، دار ابن الهيثم، القاهرة، 1426هـ/ 2005م .
3- أحمد بن جابو، دور سي امحمد بوقرة في الثورة الجزائرية، رسالة ماجستير في تاريخ الثورة الجزائرية، كلية العلوم الانسانية، جامعة الجزائر، الجزائر، 2000-2001.
4- بن زين عبد الحميد، خصال إنسانية.. تتحدى الحواجز الأيديولوجية، من كتاب في كواليس التاريخ: دوغول والجزائر أحداث قضايا شهادات، لمحمد عباس، هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.
5- عثمان حشلاف، "التمكن اللغوي أساس تحصيل العلوم الانسانية و شرط للقيام برسالة المعلم"، مجلة المبرز ،العدد الثالث عشر، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية، بوزريعة، 1999م.
6- حسن عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، ط7، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2001م.
7- حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، ط8، دار المعارف، القاهرة، 2000 م.
8- دبي رابح، السياسة التعليمية في الجزائر ودور جمعية العلماء المسلمين في الرد عليها 1830-1962، أطروحة دكتوراه في علوم التربية، جامعة الجزائر2، الجزائر، 2010-2011.
9- محمد قنانش، ذكرياتي مع مشاهير الكفاح، دار القصبة للنشر، سعيد حمدين، الجزائر، 2007.
10- مذكرات مصالي الحاج، تر، محمد المعراجي، منشورات ANEP، الجزائر، 2007.
11- محمد أمين سلام، قواعد البحث العلمي ومناهجه ومصادر الدراسات الإسلامية، مؤسسة رام للتكنولوجيا والكومبيوتر، عمان، الأردن، 1415هـ/1995م.
12- مؤنس حسين، التاريخ والمؤرخون، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1984.
13- سعد الدين السيد صالح، البحث العلمي ومناهجه النظرية "رؤية إسلامية" ، ط2، مكتبة الصحابة، جدة، ومكتبة العارفين، القاهرة، 1414هـ/ 1993م.
14- شوقي سمير، جرائم الاحتلال الفرنسي في الجزائر على ضوء الأعراف الانسانية، مجلة العلوم الانسانية، العدد الرابع، جامعة أم البواقي، الجزائر، 2015.
15- شرف الدين رضوان، التعذيب: قراءة في جريدة المجاهد (1957-1962)، مجلة المصادر، العدد الثامن، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2003.
16- شرقي الرزقي، السياسة الفرنسية في مواجهة الثورة الجزائرية التنظيمات الارهابية هيكلتها وتنظيمها، مجلة المصادر، ع20، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر.
17- فتيحة حداد، ابن خلدون وآراؤه اللغوية والتعليمية (دراسة تحليلية نقدية)، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، 2011.
18- لبنى لونانسة، النقد التطبيقي في الرحلات المغربية في القرنيين السابع والثامن الهجريين، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة باتنة، الجزائر، 1434-1435هـ/ 2013-2014م.
19- ولد خليفة محمد العربي، المذابح الكولونيالية في الجزائر نماذج من الاجرام المنظم، وشواهد من صمود شعبنا ومعاناته، دراسات وبحوث الملتقى الوطني الأول حول الأسلاك الشائكة والألغام، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 1998.
20- ياحي محمد، استراتيجية الاستعمار الفرنسي في محاصرة الثورة الجزائرية من خلال خطي شال وموريس، دراسات وبحوث الملتقى الوطني الأول حول الأسلاك الشائكة والألغام، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 1998.
21- كتاب سياسة فرنسا الاستعمارية في شمال افريقيا، وهي مقالات معربة عن مجلة الأهالي الوطنيين، في العدد 73، الصادرة بباريس، سنة 1912.